خطبة صلاة الجمعة 19/ 6/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(صدقة العلن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

قال ابن كثير: يهدي إلى الرُّشد أي يهدي إلى السَّداد والنَّجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

قال المفسرون: معنى قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَّشَد والرُّشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ✕: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الثانية والعشرون في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منَّا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتُقدِّم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى، تعينه على رؤية الطريق وتُمكِّنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزةً تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة، لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(صدقة العلن)**

المسألة: منذ صغري كفاني الله وآواني ولم يحوجني إلا إلى وجهه الكريم، ولكن في الشدة التي نعيش وفي الأخبار التي نسمع بدأت أخاف على نفسي وأهلي أن تقل النفقة أو أن أحتاج إلى غير الله تعالى، أسمع آيات الرزق وأحاديثه فأطمئن، ثم أسمع أخبار الغلاء والحصار فأضطرب، وما بين اضطراب واطمئنان أسأل هل من عمل أعمله أنجو به من هذه الشدة وأسلم به من هذه الضائقة؟ أرشدوني.

الدليل الإرشادي:

تحدثت الخطبة الماضية في دليلها الإرشادي لهذه المسألة عن صدقة السر وتتحدث خطبة اليوم عن صدقة العلن.

أيها الإخوة:

للصدقة أثرٌ كبير في دفع البلاء والنجاة من المخاوف، بسرٍ كانت أو بعلن، وهذا الكلام برهانه وجوده، ودليله وقوعه، وهو أمر مجرب ومعلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وقد دلت عليه نصوص الشريعة أيضاً.

ففي القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:262] فمن تصدق وأنفق ماله في سبيل الله لم يصبه خوف على مستقبل ولا حزنٌ على ماض، وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195] فقبض اليد والامتناع عن الصدقات والإنفاقِ في سبيل الله إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة، وبسطُها بالصدقات والمبرات نجاتُها، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5 - 7] فمن تصدق وأنفق سلك به الله طريق السلامة والنجاة والتيسير وعكسه بعكسه.

جاء في كتاب الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين: (بَابُ مَا يُرَدُّ بِهِ الْبَلَاءُ مِنَ الصَّدَقَةِ: عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الصَّدَقَةُ تَسُدُّ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الشَّرِّ**» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ لَيَصْرِفُ الْعَذَابَ عَنِ الْأُمَّةِ بِصَدَقَةِ رَجُلٍ مِنْهُمْ**»).

وجاء في شعب الإيمان للبيهقي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ موقوفاً: "بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ الْبَلَاءَ لَا يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ".

فالصَّدَقَة وَالْبَلَاء كفرسي رهانٍ فَأَيّهمَا سبق لم يلْحقهُ الآخر وَلم يتخطه.

وفي الصحيح في حديث كسوف الشمس على عهد رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا...**»

فالْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّدَقَةِ عِنْدَ الْمَخَاوِفِ، لِاسْتِدْفَاعِ الْبَلَاءِ والْمَحْذُورِ.

أخرج الترمذي عن الحارث الأشعري قال رسول الله ﷺ: «**قال سيدنا يحيى بن زكريا: آمرُكم بالصدَقةِ، فإن مَثَلَ ذلك كمثلِ رجل أسَره العدوُّ، فأوثقوا يديه إلى عنقه، وقدَّمُوه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفْدِي نفسي منكم بالقليل، والكثير، ففَدَى نفْسَه منهم**».

والحاصل أنّ نصوص الشريعة وحوادث الزمن تدل على أنّ الصدقة تدفع البلاء وترد المخاوف وتداوي الكلوم، سواء كانت الصدقة سراً أو جهراً، خفية أو علانية، فاتخذ لنفسك من كلٍّ نصيباً تجد لها في الحادثات أثراً عجيباً.

والأصل أنّ الإسرارَ بالنوافل أفضل والجهرَ بالفرائض أكمل، لكنْ من طمع باقتداء غيره به ورغب بتحريك القلوب للصدقة وأمن على نفسه الرياء كان إظهار الصدقة في حقه أفضل.

ذكروا أنَّ سيدنا عبد الله بن عبَّاس أتى الحسن والحسين رضي الله عنهما وعن أبيهما فقال: إنَّ أخي وأخاكما -يقصد عُبَيد الله بن عبَّاس- قد أسرع في ماله إسراعاً قد خِفت على نفاده، وله صبيةٌ قد خِفت أن يدَعَهم عالةً، وقد عاتبتُه في ذلك مراراً، ولا أُراه يُقلِع ولا يَنزِع، وأرجو أن يكون لكما مُطيعاً، وإن قولكما عنده مقبولٌ، فلو عاتبتماه؟ فقالا: نفعل إن شاء الله، فصارا إليه، فلمَّا دخلا وجداه يُطعم النَّاس، وإذا جُزرٌ تُنحَر. فقال أحدهما لصاحبه: هذا بعض ما شكاه عبد الله. ثمَّ صارا إليه، فاستقبلَهما وأسهل لهما عن فراشه، ولقيَهما بالإجلال والإعظام، وقالا: أتيناك في حاجةٍ، فقال: الحوائج بعد الغداء.

فلمَّا طعِما وفرَغا سألهما عن حاجتهما؟ فقالا: إنَّ أخانا وأخاك عبد الله أتانا فسألنا معاتبتَك على إسرافك في مالك، وقد رأينا بعضَ ما شكا، ولك بَنون، ولسنا نأمَن عليهم الضَّيعة بعدك. فقال: ما لقولكما عندي مردٌّ، ولا لي عمَّا تأمراني به مدفعٌ، لكنِّي أخبركما بقصتي، وأردُّ الأمر إليكما، فما أمرتماني به أتيته، وما نهيتماني عنه وقفت عنده. فقالا: هات.

فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى عوَّدني عادةً جميلةً، فعوَّدتها عباده، ولست آمنُ إن قطعت عادتي عن عباده أن يقطع عادته عني!! -يريد إن الله يعطيني فأعطي عباده وأخاف إن منعت العطاء عن العباد أن يمنع الله عني العطاء-.

فقالا: لا نأمرك في هذا بشيءٍ، وقاما فانصرفا حامدَين لأمره.

جاء في كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: (في الصدقة فوائدُ ومنافع لا يحصيها إلا الله، فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء وتدفع العين وشر الحاسد وتدفع عن الرجل المظلوم وتطفئ الخطيئة وتحفظ المال وتجلب الرزق وتفرح القلب وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، وترغم الشيطان وتزكي النفس وتنميها، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه، وتستر عليه كل عيب كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر وتكون عليه ظلا يوم القيامة وتشفع له عند الله وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك، وبالجملة فالمحسن المتصدق في خَفَارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنة واقية وحصن حصين. وفي شرح البخاري حديث عن النبي ﷺ يقول فيه: «أذهبوا البلاء بالصدقة»).

جاء في كتاب قصص العرب أنّ جليساً للخليفة المهدي يدعى سَوَّاراً قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة، فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرُفع فدخل وقت القائلة فلم يأخذني النوم فنهضت وأمرت ببغلة فأسرجت وأُحضرت فركبتها، فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال فقلت ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد. قلت أمسكها معك واتبعني، فأطلقت رأس البغلة حتى حضر وقت العصر فدخلت مسجداً فصليت فيه فلما قضيت صلاتي إذ أنا بأعمى يلتمس فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال إياك أريد، قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء فقلت قل. قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر! قلت نعم، قال: هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميتُ، فقدمت هذه المدينة لأسأل من يدلني على سوار فإنه كان صديقاً لأبي لعله يصلني بشيء. فقلت: ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان. فعرفته، كانت له علي يدٌ، وكان من أصدق الناس إلي، فقلت له يا هذا! إنّ اللهَ تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك، ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلي ثم مضيت.

وقلتُ ما أحدثُ أمير المؤمنين بشيء أظرفَ من هذا، فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألفي دينار فأُحْضِرَت فقال ادفعها إلى الأعمى. فنهضت لأقوم فقال: اجلس فجلست، فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم، قال كم دينك؟ قلت خمسون ألفاً، فحادثني ساعة وقال امض إلى منزلك فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفا وقال يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك.

قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ علي الأعمى وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك فقلت: يقضي دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضاً، فقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى. قال فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعت إليه الألفي دينار، وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك، وكافأني على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي فأخذه وانصرف.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39].

وبعد أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأشباهه: لن تجد مُذْهِباً لخوفك ومسكناً لاضطراب قلبك مثلَ الصدقة في السر والعلن، فخذ منها ما استطعت ولو أن تفرغ من دلوك في دلو أخيك، ولو أن تبذل لها شق تمرة فقد قالوا: صَدَقَةُ الْقَلِيلِ تَدْفَعُ الْبَلاءَ الْكَبِيرَ. والله أعلم.

ختاماً – أيها الإخوة:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

والحمد لله رب العالمين